اللغة العربية المشتركة واللهجات العامية

د. محمد الحباس
جامعة الجزائر

أثيرت في الكثير من الدراسات الحديثة ـ سواء عند المستشرقين أو عند العرب ـ مسألة اللغة العربية المشتركة، وهل كان العرب يتحدثون هذه اللغة في حياتهم اليومية، أم كانوا يلجئون إليها في الحالات الخاصة عندما يريدون التعبير عن المشاعر في الخطابة والشعر وغيرهما من فنون القول، ثم يستعملون في حياتهم اليومية اللهجات (اللغات) الخاصة بكل قبيلة ؟ أجاب جل الدارسين العرب المحدثين بالقول بوجود لغة عربية مشتركة، وهي اللغة الأدبية الراقية، وبجانبها اللغات العامية اليومية.

والذي يمكن قوله في هذا الموضوع هو أن اللغات جميعا لها مستويان[1] في التعبير : مستوى الحياة اليومية، وهو المستوى اللغوي الذي يلجأ فيه أصحاب اللغة إلى الكثير من التساهل في التعبير كالحذف والإدغام والتسهيل، ميلا مع مبدأ الاقتصاد الذي يشيع في هذا المستوى. ومستوى التعبير الرفيع الذي يعتمد فيه على اختيار الألفاظ وإخراج الحروف من مخارجها الأصلية والمحافظة الشديدة على القواعد النحوية والصرفية للغة، وبالجملة ففي هذا المستوى يلجأ الناطقون إلى مبدأ التحقيق الذي يقابل مبدأ الاقتصاد[2].

وإذا رجعنا إلى اللغة العربية فإننا نجد هذين المستويين ظاهرين فيها من خلال ما سجل لنا علماء اللغة، وإن كان الكثير من خصائص لغة التخاطب لم تصلنا، وذلك لعدم وجود أجهزة لتسجيل الكلام. ولكن مع ذلك وصلنا بعض هذه الخصائص في كتب النحو العربي. ذكر سيبويه في كتابه قال : "سمعت من العرب من يقول : ألا تا، بلى فا، فانظر، أرادوا : ألا تفعلوا، وبلى فافعلوا، ولكنه قطع كما كان قاطعا بالألف في أنا"[3]. وذكر في مكان آخر قال : "حدثنا أبو الخطاب[4] أنه سمع بعض العرب وقيل له : لم أفسدتم مكانكم هذا ؟ فقال : الصبيانَ بأبي، كأنه حَذِرَ أن يلام فقال : لُمِ الصبيانَ"[5].

فهذا ونحوه كثير يبين لنا كيف كان العرب يؤدون اللسان العربي في مخاطباتهم اليومية، بل كانوا يلجئون إلى مثل هذا الحذف في لغة الشعر، ذكر سيبويه ذلك، قال الشاعر وهو المسكين :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أَخَا لَهُ   كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَحِ

كأنه يريد : الزم أخاك[6].

لكن وجود هذين المستويين في الكلام لا يعني أن لغة الشعر والخطابة والقرآن الكريم كانت بعيدة عن لغات التخاطب لدرجة يصعب على العامة أن تفهم هذه اللغة، مثلما هو الشأن عندنا اليوم، وهذا ما أخطأ فيه الكثير من الدارسين المحدثين كما قلنا، يقول الدكتور إبراهيم أنيس: " وفوق هذا لم يبين لنا ابن جني ما عنى بكلام الفصيح، أ لغة تخاطبه بين أبناء قبيلته تلك التي تخضع لصفات خاصة مميزة عن غيرها من القبائل، أم كان يعني لغة الأدب والشعر، وهي اللغة التي اكتسبت معظم صفاتها من لهجة قريش ؟"[7]

فإبراهيم أنيس إذن يرى أن ابن جني أهمل هذا التوضيح، ولكن الحقيقة أن ابن جني انطلق من الواقع اللغوي العربي كما شاهده، وهو عدم وجود اختلافات بين لغة التخاطب ولغة الأدب، وما الاختلاف اللهجي إلا كيفيات مختلفة في أداء اللسان العربي. وقد قرر ابن جني نفسه أن الاختلافات اللهجية بين القبائل العربية كانت طفيفة جدا ف " هذا القدر من الخلاف على قلته ونزارته محتقر غير محتفل به ولا معيج عليه، وإنما هو في شيء من الفروع يسير، فأما الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه "[8].

ويمكن أن نسوق مجموعة من الحجج لتبيان أن لغة التخاطب اليومي كانت عندهم هي نفسها لغة الأدب، إلا ما ذكرنا من الاختلافات الأدائية الطفيفة :

1. إن رواة اللغة حين قاموا بجمع اللغة لم يعتمدوا على لغة الشعر والخطابة والقرآن الكريم فقط، بل اعتمدوا أكثر من ذلك على لغة التخاطب اليومي عند القبائل الفصيحة، ورحلوا إلى البادية لمشافهة الأعراب الفصحاء وقضوا هناك السنين ذوات العدد، وكان من أبرز هؤلاء أبو عمرو بن العلاء وتلامذته الثلاثة : الأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري، وكذا الخليل بن أحمد الفراهيدي وابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني والكسائي وغيرهم كثير

2. كان اللسانيون العرب عامة يعتمدون على أعراب فصحاء في تقنين اللغة العربية مثل أبي مهدية وأبي خيرة والمنتجع والشجري الذي أخذ عنه ابن جني كثيرا، والروايات تدلنا على أنهم كانوا يشافهونهم في تخاطبهم اليومي العادي، ولم يكونوا ينقلون عنهم لغة الشعر والخطابة فقط.

3. لو كانت الفصحى لغة الأدب والطبقة الراقية فقط لما أخذ الرواة من الأعراب الحفاة المنتجعين للكلإ، لأن هؤلاء الأعراب لا يمثلون الطبقة الراقية

في المجتمع العربي كغيرهم من البداة في كل مجتمع. بل إننا وجدنا الرواة يستبعدون الحضر من رقعة الفصاحة، فالمقياس عندهم لم يكن الرقي الاجتماعي والثقافي وإنما كان عدم الاختلاط بالأمم الأخرى، وهذا كان متوفرا للأعراب فقط، خاصة بعد الفتوحات الإسلامية.

4. لم نجد شاهدا واحدا من اللغويين والنحاة العرب القدماء أثبت وجود هذا الفرق بين اللغة الأدبية واللهجات العربية القبلية، بل اعتبروا هذه اللغات[9] فصيحة بالشروط التي عدوها في الفصاحة. فلو وجدوا هذا الفرق لما سجلوا هذه اللغات ضمن اللغة الفصحى، ولما قال ابن جني : " باب اختلاف اللغات وكلها حجة "[10]. والذي وجدناه عند هؤلاء اللسانيين العرب هو مزجهم بين اللغات (اللهجات) وبين لغة الشعر والقرآن الكريم، بل اعتمدوا على لغات العرب في تفسير القرآن الكريم والشعر.

5. لم يحدثنا التاريخ أن العرب وجدوا صعوبة لغوية في فهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولم توجه هذه التهمة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه أتاهم بكلام لا يفهمونه، كما أن القرآن نفسه نص على أن الله عز وجل لا يرسل رسولا إلا بلسان قومه حتى تقوم عليهم الحجة، قال تعالى : **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾** [11] . والقرآن لم ينزل لطائفة من الناس بل لعامة الناس، المرأة والرجل والمتعلم والأمي قال تعالى : **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾** [12] . والتاريخ يحدثنا أن العرب كانوا يفهمون القرآن جميعا وكانوا يقرئونه حسب لغاتهم.

هذه بعض الحجج التي تدحض قول القائلين بالتفريق البعيد بين اللغة الأدبية المشتركة وبين لغات التخاطب اليومي.

والغريب أن الذين قالوا بهذا الرأي نصوا على أن من خصائص هذه اللغة المشتركة أنها لغة خاصة، ذكر ذلك إبراهيم أنيس في قوله : " ولذلك لم يتقنها إلا الخاصة من العرب، وهي وإن كانت مفهومة لعامة العرب يسمعون إليها في شوق وإعجاب، غير أنها لم تكن في متناول جمهور الناس وعامتهم، ولذلك كانوا يرون إجادتها مما يرقى بالمرء إلى المركز المرموق بين أهله وعشيرته "[13]. ولكن رأي إبراهيم أنيس هذا لا يستند على شاهد قديم، إلا إذا اعتبرنا أن إجادة الفصحى تعني إجادة فن القول بالضرورة، وهذا غير صحيح، فالشاعر أو الخطيب لا يحتاج إلى إجادة اللغة فقط لكي يكون شاعرا أو خطيبا، بل يحتاج كذلك إلى الموهبة الفطرية، وقد وجدنا أناسا كثيرين يجيدون لغة من اللغات ولكنهم ليسوا بشعراء ولا خطباء، وذلك لعدم توفر الموهبة لديهم. ففي عاميتنا اليوم عندنا شعراء الشعر الشعبي يقولون شعرا في مستوى لا يمكن لأي متكلم بهذه العاميات أن يقوله، ومع ذلك فلسانهم لساننا، ولم يتثقفوا بثقافات أخرى. فكذلك الشأن بالنسبة إلى العربية القديمة.

فالشاعر أو الخطيب عندهم لم يفضل غيره لأنه تعلم لغة راقية عن لغتهم، وإنما لقوله الشعر بلغتهم، فالفضل راجع إلى الموهبة لا إلى اللغة، بدليل أنهم كانوا يفهمون كلامه كما صرح بذلك الدكتور إبراهيم أنيس نفسه. وجملة القول في هذا الموضوع أنه ليس كل من أجاد لغة من اللغات يمكنه أن يقول بها أدبا شعرا أو نثرا.

ومن خصائص هذه اللغة المشتركة عند هؤلاء الباحثين هي كونها لغة غير سليقية لكل العرب: " ولذلك لا يصلح مطلقا أن نقول أنها لغة سليقية لكل العرب، وهذه هي الصفة الثالثة من الصفات اللغة المشتركة وهي أنها ليست لغة

سليقية، لأن معنى السليقة هو أن تتكلم لغة من اللغات بغير شعور بما لها من خصائص"[14]. فعبد التواب رمضان يرى بأن اللغة العربية كان يتعلمها الخطباء والشعراء تعلما، وكانوا يشعرون بخصائصها النحوية والصرفية، وهذا شيء لم تثبته الروايات القديمة، بل هي تثبت العكس وهو أن العرب جميعا الشعراء منهم وغير الشعراء كانوا يتكلمون العربية عن سليقة دون تعلم، والذي كان يتفاضل فيه الشعراء هو قول الشعر، فمنهم من كان يقول الشعر ارتجالا، ومنهم من كان ينقحه ويجوده مثلما يروى عن زهير بن أبي سلمى صاحب الحوليات. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن البحوث العلمية في اللسانيات التعليمية لا تصدق هذه النظرة، فاللغة المشتركة ـ إذا سلمنا بها في العربية أو في أية لغة ـ يمكن أن تصير سليقية إذا تُعُلِّمَتْ في الصغر وبشروط ذكرها ابن خلدون عند تحدثه عن الملكات اللسانية، وهو ما قررته البحوث العلمية في اللسانيات التعليمية الحديثة[15]. فليس مستحيلا أن تصبح أية لغة أو لهجة سليقية إذا تعلمت بتلك الشروط.

ثم يبرهن عبد التواب رمضان على رأيه هذا بأن اللحن كان يقع من العرب قبل الإسلام وبعده، فلو كانت هذه اللغة سليقية لما وقع فيها اللحن[16] ويمكن القول في هذا المضمار بأن اللحن الذي كان يقع عند العرب في الجاهلية كان بسيطا، وهو ما يسمى بفلتات اللسان التي تحدث لنا في العامية السليقية عندنا، لكن جمهور العرب كانوا لا يلحنون في كلامهم، ولم يحدث اللحن إلا بعد أن اختلط العرب بغيرهم بعد الفتوحات الإسلامية، وهذا ما أجمعت عليه كل الروايات التي تحدثت عن أسباب وضع النحو العربي، ولم يشذ أحد ممن رووا هذه الروايات، فلسنا ندري من أين استقى عبد التواب رمضان كلامه هذا ؟.

أصل اللغة العربية المشتركة في نظر القائلين بها

لما استقر رأي هؤلاء الباحثين على وجود لغة أدبية مشتركة، بدءوا يبحثون عن أصل هذه اللغة. فذهب فريق إلى أنها لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم[17]، واعتمدوا على عدة حجج لإثبات هذا الرأي، وخاصة النفوذ السياسي والاقتصادي والديني، فوجدوا أن هذا النفوذ لم يتهيأ إلا لقريش فحكموا على أن لغتها هي أصل اللغة الأدبية المشتركة، واستنتج بعضهم من كلام القدماء القائل بأن قريشا هي افصح القبائل أن هؤلاء النحاة جعلوا لغة قريش مقياسا للغة الفصحى : "وهنا وقفوا على الخطأ المنهجي الأول إذ جعلوا سنن العرب في كلامها ما سنته قريش أو تمثلته، وأخضعوا مقاييسهم لما سمعوه من ألفاظها وتراكيبها "[18]. والحقيقة أن النحاة العرب القدماء لم يجعلوا لغة قريش مقياسا للفصحى، وإنما وصفوها بأنها أفصح اللغات، والدليل على ذلك هو اعتمادهم على قبائل نجدية في أخذ اللغة مشافهة وإبعادهم قريشا من رقعة الفصاحة، يقول أبو نصر الفارابي : " كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس. والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العرب من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليه اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ من حضري قط. ولا من حاضرة الحجاز، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم"[19].

هذا الكلام ونحوه هو الذي جعل بعض الدارسين يقعون في اتهام النحاة العرب بالتناقض، فهم من جهة يصفون لغة قريش بأنها أفصح اللغات، ومن جهة أخرى يستبعدونها من رقعة الفصاحة[20]. ولحل هذا التناقض الظاهري نقول : بأن لغة قريش كانت أفصح اللغات في الجاهلية وزمن نزول القرآن حتى نهاية القرن الأول الهجري، أما في زمن التحريات الميدانية[21] فقد دخلها اللحن وفسدت، فلم تبق فصيحة فضلا عن كونها أفصح اللغات، وبالتالي فلا تناقض في الحكم.

وقد أدى هذا الوهم ببعضهم إلى القول بأن الرواة آثروا " الأخذ عن قريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وغيرهم ممن كانت منازلهم في وسط الجزيرة"[22]. فتوهم إبراهيم أنيس أن الرواة أخذوا عن قريش لما سمعهم يقولون بأن قريشا أفصح القبائل، وقد رأينا أن الفارابي نص على عدم الأخذ من حاضرة الحجاز. والمقصود بالأخذ هنا هو الأخذ المباشر من أفواه الفصحاء، أما رواية المأثور من كلام العرب فهو يعم كل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ولا تسمى هذه العملية عند النحاة القدماء أخذا إنما تسمى رواية، وقد تطلق الرواية أيضا على الأخذ المباشر.

وذهب محمد حسن كامل إلى أن العلماء القدماء لو اعتمدوا على لغة قريش وحدها لكان ذلك أجدى في الكشف عن قوانين الفصحى، وهذا لاعتقاده بأن لغة قريش هي اللغة المشتركة[23].

هذه هي آراء الفريق الذي زعم أن لغة قريش هي اللغة النموذجية المشتركة، أما أصحاب الرأي الثاني فهم يرون أن اللغة المشتركة ليست لغة قريش، وإنما هي لغة جميع العرب[24]، وردوا على حجج القائلين بالرأي الأول بأن قريشا لم يكن لها ذلك النفوذ الذي نسبوه إليها، أما قول القدماء بأن قريشا أفصح القبائل، وأن القرآن نزل بلغتها فهو ناتج عن تعاطف هؤلاء مع قبيلة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ويبدو أن كلا من الفريقين ربط بين الفصاحة وبين اللغة المشتركة، فلما ذكر القدماء أن قريشا أفصح القبائل، ظن هؤلاء أنهم يقصدون أن لغة قريش هي اللغة المشتركة النموذجية الفصحى.

والحقيقة أن ما روي من أن لغة قريش أفصح اللغات، أو أن القرآن نزل بها مثلما جاء في اللسان : " قال قتادة : كانت قريش تجتبي - أي تختار - أفضل لغات العرب حتى صار أفضل لغاتها لغتُها فنزل القرآن بها"[25]. فهذا لا يدل على أن لغة قريش هي الفصحى بمفهومها اليوم، أي اللغة المشتركة، وإنما يدل على أن قريشا كانت أفصح القبائل للسبب الذي ذكره قتادة، وكذلك لبعدها عن الأعاجم من جميع الجهات، وتعبير : "أفصح اللغات" لا يعني أن لغتها هي الفصحى، وما عداها لهجات عامية، كما هو الشأن اليوم، بدليل أخذ الرواة من كثير من القبائل العربية غير قريش، وإنما يعني هذا أنها أفصح بصيغة التفضيل، وما عداها فصيح، فلا وجه إذا في أخذ هذا الكلام للاحتجاج به على أن لغة قريش هي الفصحى، أي المشتركة بين جميع القبائل العربية.

أما قولهم بأن القرآن نزل بلغة قريش يعني أنها كانت مشتركة، فلا يحتج به عند القائلين بأن القرآن الكريم نزل باللغة المشتركة.

أما نحن فنفهم من هذا كله أن القبائل العربية كانت تتفاوت في الفصاحة بمفهومها اللغوي، أي السلامة من اللحن الناتج عن التأثر بالأعاجم، وبالتالي كانت قريش أفصح القبائل لبعدها عن الأعاجم. أما نزول القرآن بلغتها فلا يعني أنها كانت اللغة المشتركة، وإنما نزل القرآن بلغة الحجاز عامة، وبلغة قريش خاصة، ولكن ورد فيه الكثير من اللغات الأخرى كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه

(الإتقان في علوم القرآن) تحت عنوان : (فيما وقع فيه بغير لغة الحجان)[26]، ومعنى هذا أن القرآن نزل باللغة العربية التي هي لغة جميع العرب، ولكن العرب كانت تؤدي اللسان العربي بكيفيات مختلفة في ظواهر جزئية، فجاء القرآن بكيفيات الحجاز عامة، وكيفية قريش خاصة على اعتبار أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرشي، والقوم الذين أنزل فيهم أول ما أنزل كانوا هم قريش، ولكن وردت فيه بعض الكيفيات بلغات غير حجازية، وقد ذكر السيوطي لغات الكثير من القبائل العربية مثل اليمن، وهذيل، وأزد شنوءة، وحمير، والنخع، وهوازن، وكنانة، وغيرها كثير، كما ذكر أيضا أنه رأى تأليفا مفردا في هذا النوع، ومن الكتب المؤلفة في هذا الفن كتاب (فنون الأفنان فيما في القرآن بلغة همدان) لابن الجوزي[27].

فهذا إذا هو تفسير قولهم نزل القرآن بلغة قريش أو بلغة الحجاز. وليس معناه أن القرآن نزل بلغة مشتركة وفي نفس الوقت بلغة قريش، فكانت لغة قريش في نظر هؤلاء الدارسين هي هذه اللغة المشتركة.

يؤيد هذا المذهب الذي ذهبنا إليه ما ذكره الأزهري في قوله : " وجعل الله ـ عز وجل ـ القرآن المنزل على النبي المرسل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عربيا، لأنه نسبه إلى العرب الذين أنزله بلسانهم، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب في باديتها وقراها العربية"[28].

ونحن نعلم أن الأزهري شافه العرب الفصحاء، ولا شك أنه قارن بين كلامهم وبين القرآن الكريم، فلم يجد فرقا يذكر[29]. أما اختلاف القراءات القرآنية فراجع إلى عدة أسباب منها وأشهرها الاختلافات اللهجية عند العرب، وهذا

دليل آخر على أن لغة القرآن لغة جميع العرب، وليست لغة الطبقة الراقية، حيث كان العرب يؤدون القرآن الكريم حسب لغاتهم، ولم يخرجه هذا من الفصاحة، يؤكد هذا ما رواه ابن فارس عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال : "نزل القرآن على سبعة أحرف، أو قال : على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن، وهم الذين يقال لهم : عليا هوازن، وهي خمس قبائل : أو أربع، منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف[30]...

وذكر السيوطي آراء كثيرة في تفسير هذا الحديث، منها : "أنزل القرآن أولا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها عن اختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحدا منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى للمشقة"[31].

النحاة العرب القدماء ولغات العرب

إذا بحثنا عن مدونة الأدب العربي فإننا نجدها تتكون من :

1. القرآن الكريم.
2. الحديث الشريف على خلاف بين العلماء.
3. الشعر الجاهلي والإسلامي إلى زمن ظهور اللحن.
4. النثر الجاهلي الإسلامي والإسلامي إلى زمن ظهور اللحن.
5. كلام فصحاء العرب المروي مشافهة.

هذه هي روافد اللسان العربي، وهي في مجموعها تكون ما يسمى باللسان العربي، إلا أنها لا تسير على نسق واحد في تأديات القبائل العربية لها. هذا ما أطلق عليه النحاة العرب القدماء باللغات.

لم يدرس هؤلاء العلماء اللغات منفصلة، وإنما درسوها باعتبارها روافد للسان العربي الواحد الموحد، واعتمدوا ظاهرة الشيوع ـ وخاصة البصريون منهم ـ فما شاع عند جميع أو أكثر القبائل أخذ على أنه يمثل الأفصح الذي يجوز القياس عليه، وما خالف هذا الشيوع سمي لغات[32].

وقد انتقد بعض الدارسين المحدثين هذا المنهج، يقول محمد حسين آل ياسين : "والحق أن البصريين والكوفيين أغفلوا التفريق بين اللهجات العربية واللغة المشتركة"[33]. فعلا لم يفرق هؤلاء العلماء بين ما سماه باللهجات وبين اللغة المشتركة، لأنه لم يكن عندهم لهجات في مقابل الفصحى، بل كان عندهم لهجات اتحدت في الكثير من خصائصها فكونت اللغة الشائعة، لغة الجمهور، واختلفت في البعض الأخر فكونت ما يسمى باللغات.

لكن الذي لا يمكن قبوله من طرف المنتقدين لمنهج النحاة القدماء هو اعتقادهم خطأ هؤلاء العلماء في الاعتماد على اللغات في تقنين اللسان العربي، ذلك أن أولئك النحاة لم يكونوا يعرفون ما يسمى باللغة المشتركة في مقابل اللغات القبلية الأخرى، والذين انتقدوهم اعتمدوا على هذا المفهوم، وقد رأينا خطأ هذه النظرة، وبالتالي لا نقر هؤلاء على انتقاداتهم أولئك في هذه المسألة.

ولاعتقاد بعض الدارسين بوجود لغات بعيدة ومنفصلة عن اللغة المشتركة، فإنهم لم يوافقوا النحاة القدماء الذين اعتنوا بلغتي الحجاز ونجد ووصفهم اللغات الأخرى تارة بالشذوذ الذي لا يقاس عليه، أو الضعف أو الرداءة، إلى غير ذلك من الأوصاف[34].

وفي هذا المضمار يمكن القول بأن علاقة لغة الأدب والقرآن الكريم التي سماها هؤلاء بالمشتركة باللغات الأخرى لم تكن بعيدة بحيث يجب عليهم

دراستها منفصلة، وكذلك كان القدماء قد رسموا منهجا يعتمد على الشيوع، وما خالف الشائع سموه لغات، وهي درجات ابتداء من الأفصح، وانتهاء بالشاذ والنادر والمنكر، فهذه الأحكام خاضعة لمقياس الفصاحة عندهم الذي يدور عندهم حول الشيوع والاستعمال. فلا وجه لأن نلومهم في هذا المنهج، لأن القوانين العلمية لا ترقى إلى المستوى العلمي إلا إذا اطردت، أما الشواذ من الأشياء فهي تحفظ ولا يقاس عليها لأنه لم يصل إلى مرتبة القانون[35]. يؤكد هذا ما ذكره ابن فارس من أن الاختلاف في اللغات على أربعة أبواب :

1. المجمع عليه الذي لا علة فيه، وهو الأكثر والأعم، مثل : الحمد والشكر، لا اختلاف فيه في بناء ولا حركة.

2. ما فيه لغتان وأكثر، إلا أن إحدى اللغتين أفصح، نحو : بغداذ وبغداد وبغدان، هي كلها صحيحة إلا أن بغداد في كلام العرب أصح وأفصح.

3. ما فيه لغتان أو ثلاث وأكثر وهي متساوية كالحِصاد والحَصاد، بكسر الحاء وفتحها.

4. ما فيه لغة واحدة إلا أن المولدين غيروا فصارت ألسنتهم بالخطأ... وعلى هذه الأبواب الثلاثة (الأولى) بنى أبو العباس ثعلب كتابه المسمى (فصيح الكلام)[36].

ولعل الهدف الذي كان يقصده المستشرقون بالقول بوجود اللغة الأدبية المشتركة هو هدف غير علمي، القصد منه إشعار العرب اليوم بأن اللهجات العامية شيء طبيعي كان موجودا عند العرب القدماء، وبالتالي فلا جدوى من محاولة التقريب بين هذه العاميات وبين الفصحى، ما دامت هذه الوضعية كانت موجودة قديما، وقد انخدع بعض العرب المحدثين بهذه الفكرة الخطيرة، وآمنوا بهذه النظرة التي تهدف إلى تمزيق العرب سياسيا واجتماعيا من خلال الإبقاء

على هذه العاميات التي ستزداد بعدا عبر الزمان، لأنها لا ضابط لها يوقف هذا التطور، ونحن نعلم أن الوحدة اللغوية من أهم مقومات الوحدة بين الأمم.

مفهوم الفصحى عند القدماء والمحدثين

إذا سمع أحدنا اليوم كلمة الفصحى، فأول ما يتبادر إلى ذهنه أنها تلك اللغة الراقية، لغة الأدب والعلم والثقافة، اللغة التي احتفظت بأخص خصائص العربية وهو الإعراب. ويقابل هذه الفصحى اللهجات العامية التي يستعملها الناس في حياتهم اليومية في البيوت والأسواق وعند الأنس والارتخاء.

فهل كان هذا هو شأن العربية الفصيحة قديما ؟ لقد أجبنا عن جزء من هذا التساؤل عند حديثنا عما سمي باللغة العربية المشتركة الأدبية في مقابل اللغات العربية الأخرى، ورأينا أن المستشرقين ومن لف لفهم من العرب المحدثين يؤمنون بهذه الفكرة. وإيمانهم بها جعلهم يقعون في خطأ آخر، وهو اعتقادهم بأن معنى الفصحى واللغات عند القدماء هو عين ما نسميه اليوم بالفصحى والعاميات.

وانطلاقا من هذا المفهوم فإنهم لاموا القدماء من النحاة على اعتبارهم (العاميات) في نظرهم لغات فصيحة، وكان الأجدى بهم أن يقصروا بحوثهم حول اللغة الفصحى العالية فقط[37]. إلا أن هؤلاء الباحثين اصطدموا بواقع مفروض، وهو أن رواة اللغة لم يكتفوا برواية الشعر والنثر الفني والقرآن الكريم فقط، بل اعتمدوا إلى جانب ذلك على مشافهة فصحاء العرب، كما أن القراءات القرآنية اعتمدت على لغات القبائل (العامية) في نظر هؤلاء، فلما اصطدموا بهذا الواقع راحوا يتخبطون، فالقراءات القرآنية لا تمثل شيئا من العامية في نظرهم، إنما تمثل تلك العناصر التي ارتقت إلى الفصحى، فاصبح يقرأ بها القرآن الكريم، وينظم بها الشعر[38].

لكن الواقع في هذه المسالة أن اللغات الفصيحة (بالمفهوم اللغوي القديم) لم ترق إلى الفصحى حتى أصبحت لغة القرآن والشعر، إنما هي الفصحى بعينها.

فعبده الراجحي يقر من جهة أن القراءات ما هي إلا اختلافات لهجية، وهو يعتقد أن اللهجات العربية آنذاك عامية، ليست فيها خصائص الفصحى، فحلَّ المشكلة بما سماه بالعناصر اللهجية التي رقت إلى الفصحى. وهذا الفهم نفسه للفصحى هو الذي جعل إبراهيم أنيس(39) يستغرب عدم وجود شعراء كثيرين ـ وخاصة الفحول منهم ـ في القبائل الثلاث التي اعتمد عليها الرواة في أخذ اللغة، وهي قبائل : تميم وهذيل وطيِّء، فاعتقاده بأن الفصحى هي لغة الثقافة العالية، كان ينبغي أن يؤيد بوجود شعراء كثيرين في هذه القبائل الفصيحة. فهل يعقل أن تكون هذه القبائل أفصح من غيرها مع قلة شعرائها ؟ وهنا نجيب عن هذا التساؤل بما ذكرناه من أنه لا علاقة بين الفصاحة قديما وبين الشعر، لأن الشعر موهبة لا تتأتى لكل من عرف لغة من اللغات.

كما أدى هذا الفهم ببعضهم إلى القول : "ليست اللغة العربية بدعا من اللغات، ومن المستحيل عقلا أن يكون فصحاء العرب ألموا تلقائيا بهذه القواعد مهما تكن سليقتهم مبرأة من كل عيب"(40) والغريب في هذا الكلام أنه يتحدث عن اللغة ثم يخلط ذلك بالحديث عن القواعد، فهل الإلمام باللغة يعني بالضرورة الإلمام بالقواعد ؟ إن العكس هو الصواب، لأن القواعد تابعة للغة وليس العكس، فكل اللغات كانت غير معروفة القواعد ثم اكتشفت قواعدها فيما بعد، فهذا الخلط بين ملكة اللسان وصناعة اللغة كان من وراء الكثير من الأفكار الخاطئة عند الدارسين العرب المحدثين، ولو أنهم اطلعوا على ما قاله ابن خلدون في هذا الشأن لأمنوا هذه الزلات.

وأخيرا يمكن أن نلخص رأينا في هذه النقطة فنقول : إن الفصحى قديما كانت بمثابة العاميات عندنا اليوم، كانت لغة سليقية، ولهذا أخذها الرواة من الأعراب الجفاة، ومن الصبيان والعبيد، ولم تكن لغة ثقافة في مقابل العامية لغة الحديث اليومي مثلما هو عندنا اليوم. ومن هنا تدحض كل الانتقادات الموجهة ضد النحاة العرب القدماء، وخاصة الانتقادات التي تصفهم بالمغالاة في سليقة العرب عامة والأعراب خاصة، أو عدم اهتمامهم بالفصحى وحدها، لغة القرآن والشعر دون اللغات المختلفة للقبائل العربية، فلم يكن هؤلاء العلماء يفرقون بين ما نسميه نحن اليوم بالعامية والفصحى، إنما كانت عندهم لغة واحدة هي الفصحى أوالفصيحة التي تؤدى مع اختلافات يسيرة لدى كل قبيلة عربية.

خلاصة

قضية "اللغة العربية المشتركة" استرعت اهتمام الباحثين المحدثين ـ مستشرقين وعرب ـ حيث ذهب المستشرقون ومن لف لفهم من العرب المحدثين إلى القول بوجود لغة عربية مشتركة بين كل قبائل العرب، وهي لغة الثقافة والعلم والأدب والخطابة، في مقابل اللهجات الخاصة بكل قبيلة، والتي كان النحاة العرب القدماء يسمونها "اللغات"، وذهب هؤلاء إلى القول بأن أصل هذه اللغة هي لغة قريش، ولكنهم لاحظوا أن اللغويين القدماء استبعدوها من رقعة الفصاحة، فظنوا أن هناك تناقضا، والحقيقة أنه لا تناقض في الأمر، لأن لغة قريش كانت أفصح لغات العرب في الجاهلية، فلما اختلطت بالأعاجم بعد الإسلام زالت عنها فصاحتها.

أما الرأي الثاني فهو رأي القائلين بعدم وجود لغة عربية مشتركة، وذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن اللغة العربية واحدة، واللهجات أو لغات العرب تكون

في مجموعها اللسان العربي، إلا أنهم لاحظوا أن العربية ـ كغيرها من اللغات ـ لها مستويان : لغة الأنس (في السوق والبيت...) واللغة الرسمية (لغة الأدب والخطابة...) ولا حظوا أن النوع الأول يمتاز بالخفة والاقتصاد، كما يمتاز النوع الثاني بالتحقيق والتباين، ولكن كلا المستويين كان فصيحا. وأما قضية اللهجات فلا يمكن النظر إليها كاللهجات العربية الحديثة وعلاقتها بالفصحى، بل كانت كلها فصيحة، والاختلاف اللهجي هو أداء خاص بكل قبيلة للسان العربي في جزئية من جزئياته، ولا تعتبر لهجاتنا اليوم تطورا للغات العرب، وإنما هي تطور للسان العربي كله لما أصابه اللحن جراء الاختلاط بالأعاجم.

وجملة القول فإن الرأي الأصوب عندنا هو الرأي الثاني القائل بعدم وجود لغة عربية مشتركة في مقابل اللهجات "اللغات"، بدليل أن العرب جميعهم كانوا يفهمون القرآن الكريم، وهو أفصح نص في العربية شكلا ومضمونا، وكانوا كذلك يفهمون الشعر وهو بلغة راقية، كما أن رواة اللغة أخذوا من كل الفصحاء وعلى رأسهم سكان البوادي وهم أقل ثقافة في كل أمة.

المصادر والمراجع

1. الحاج صالح، اللسانيات العربية واللسانيات العامية، رسالة دكتوراه.
2. الحاج صالح، مشاكل اللغة العربية والبحوث العلمية الميدانية، مقال علمي.
3. الحاج صالح، مجلة اللسانيات، ط معهد اللسانيات والصوتيات بالجزائر، 1971.
4. سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977.
5. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1965، ط 3.
6. ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، مطبعة دار الهدى، بيروت بدون تاريخ، ط 2.
7. إبراهيم أنيس، مستقبل اللغة العربية المشتركة، مطبعة الرسالة، 1959.
8. عبد التواب رمضان، فصول في فقه العربية، ط القاهرة 1973.
9. ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة 1967، ط 2.
10. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة العربية، دار العلم للملايين، 1980.
11. أبو نصر الفارابي، الحروف، دار المشرق، بيروت، 1970.
12. السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد البجاوي وآخرون، مطبعة البابي الحلبي، بدون تاريخ.

13. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1987، 4.

14. أحمد علم الدين، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1978.

15. محمد كامل حسن، اللغة العربية المعاصرة، مطبعة دار المعارف بمصر، 1976.

16. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام دار العلم للملايين، 1978، ط 2.

17. ابن منظور، لسان العرب، طبعة بيروت، 1956.

18. الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964.

19. ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، بيروت 1964.

20. محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980، ط 1.

21. عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات، دار المعارف بمصر، 1968.

الإحالات

1. الحاج صالح، اللسانيات العربية واللسانيات العامة، ج 1 ـ ص81 وما بعدها.

2. الحاج صالح، مشاكل اللغة العربية والبحوث العلمية الميدانية، مقال علمي، ص..4
3. سيبويه، الكتاب، ج2، ص62، ط بولاق
4. يعني الأخفش الأكبر أستاذه.
5. سيبويه، الكتاب، ج1، ص255، ط عبد السلام هارون.
6. كتاب سيبويه، ج1، ص256، ط عبد السلام هارون.
7. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص165 ـ 166.
8. الخصائص، ج1، ص.244
9. كان النحاة العرب القدماء يستعملون اللغات في معنى اللهجات مثل قول ابن جني : "ألا ترى أن لغة التميميين في ترك إعمال (ما) يقبلها القياس، ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك الخصائص، ج2، ص. 10.
10. الخصائص، ج2، ص. 10.
11. سورة إبراهيم، الآية 4.
12. سورة سبإ، الآية 29.
13. مستقبل اللغة العربية المشتركة، ص..9
14. عبد التواب رمضان، فصول في فقه العربية، ص. 91.
15. مقدمة ابن خلدون، ص. 1086 وما بعدها.
16. فصول في فقه العربية، ص. 91.
17. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص. 46.
18. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص. 28.

19. الحروف، ص. 147. والمزهر للسيوطي، ج1، ص. 211 ـ 212.

20. أحمد علم الدين، اللهجات العربية في التراث، ج1، ص.. 181

21. المقصود بالتحريات الميدانية تلك الحركة التي بدأها أبو عمرو بن العلاء حوالي سن 90 للهجرة، والتي كان اللغويون يخرجون فيها إلى البادية من أجل رواية اللغة من أفواه الأعراب، وسميت بالتحريات لأن هؤلاء اللغويين كانوا يتحرون الفصيح من اللغات والفصيح من القبائل فيأخذون عنهم، ويتركون من دونهم من العرب الذين اختلطوا بغيرهم من الأمم الأعجمية ففسدت لغتهم بذلك الاختلاط.

22. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص. 48.

23. اللغة العربية المعاصرة، ص. 41.

24. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 8، ص. 640 ـ 641.

25. لسان العرب، مادة (ع ر ب).

26. ج1، ص. 175 وما بعدها.

27. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ص. 175 ـ 176 ـ 177.

28. تهذيب اللغة، مادة (ع ر ب).

29. نفس المصدر، ج1، ص. 7.

30. الصاحبي في فقه اللغة، ص. 57-58.

31. الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص. 63.

32. الحاج صالح، اللسانيات العربية واللسانيات العامة، ج1، ص. 105 وما بعدها.
33. الدراسات اللغوية عند العرب، .230
34. عبد التواب رمضان، فصول في فقه العربية، ص. .76
35. الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، المجلد الأول، 1971، ص. .21
36. الصاحبي في فقه اللغة، ص. 72 ـ .73
37. عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات، ص. 1 ـ .2
38. عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات، ص. .1
39. في اللهجات العربية، ص. 152-.153
40. محمد كامل حسن، اللغة العربية المعاصرة، ص. 94.